الدلالة النحوية في نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني

Grammatical Significance in the Theory of Nazm by Abd al-Qahir al-Jurjani

عبد الله باوني[1]،

[1]جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي – تبسة (الجزائر)، abdallah.baouni@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2025/01/30. تاريخ القبول: 2025/09/16 تاريخ النشر: 2025/12/15

ملخص:

الدلالة النحوية مصطلح لغوي معاصر، تناوله كثير من الدارسين بالشرح والتوضيح، والمستقرئ لنظرية النظم ولعبد القاهر الجرجاني والتي عرضها في كتابيه الشهيرين "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" خاصة في الأول منهما يجده قد صاغ نظرية وضع فيها قوانين كلية للدلالة النحوية على مستوى التركيب، وأدخل "علم معاني النحو" أساسا صلبا لهذه النظرية، وهذه الدراسة محاولة لتوضيح ذلك والتأكيد عليه.

كلمات مفتاحية: الدلالة النحوية؛نظرية النظم؛ مستوى التركيب؛ معاني النحو.

Abstract:

The grammatical significance in Jurjani's systems theory Abstract Syntactic connotation is a contemporary linguistic term, which was dealt with by many scholars with explanation and clarification, and the stable of systems theory and by Abd al-Qaher al-Jarjani, which he presented in his two famous books “Evidence of Miracles” and “Asrar al-Balaghah”, especially in the first of them, he found that he had formulated a theory in which he set up comprehensive laws for the grammatical significance at the level of composition And introduce "the science of semantics" a solid basis for this theory, and this study is an attempt to clarify and confirm that.

Keywords: Grammatical Significance; Theory of Nazm; Syntactic Level; Meanings of Grammar.

المؤلف المرسل: عبد الله باوني، **الإيميل**:abdallah.baouni@univ-tebessa.dz

1. مقدمة:

جذبت الروابط بين الألفاظ ومدلولاتها انتباه القدماء ودفعتهم للتساؤل عن السبب في استخدام ألفاظ معينة للإشارة إلى معان معينة، لذا يرى أغلب الدارسين المعاصرين أن معظم القدماء إن لم يكن جميعهم قد ذهبوا إلى أن السبب في استخدام لفظ معين للدلالة على معنى معين إنما يعود إلى وجود "مناسبة" بطريقة أو بأخرى بين هذا اللفظ وهذا المعنى.

والألفاظ في دلالتها كالكهرباء الساكنة "تظل ساكنة (غير ناجزة) مادام التيار الكهربائي مفصولا، فإذا وصلت أقطاب الدارة الكهربائية سرت مولدة طاقة هائلة (ناجزة) متغيرة الشكل متعددة الاستخدام.

فالصوامت (ش/م/س) مثلا صوامت مفترضة فارغة دلاليا، موجودة بالقوة في البناء الكلي للمعجم العربي، صارت عند تحولها إلى صيغة مقبولة دالة على الجرم السماوي الملتهب المتعارف عليه اقترانا ناجزاً بين الدال والمدلول، يحمل بُعداً معرفيا مرجعيا متداولا بين أبناء العربية ودارسيها، ينتشر بينهم بالعادة وبالاكتساب، وتتوارثه الأجيال، وتتناقله بعد اكتساب الأفراد له من خلال تجاربهم في الكون الدال على الوجود"(سهى فتحي، 2014، ص08).

إن ما تميز به فكر الجاحظ من عمق نظري يحتم علينا المرور بآرائه المتعلقة باللفظ والمعنى في سياقه المذهبي العقائدي الاعتزالي، فتحليلهم (المعتزلة) النظري العميق لعلاقة الاسم بالمسمى والذي أفضى إلى الفصل بينهما، ومن ثم إلى الفصل بين اللفظ والمعنى استجابة لأصول فلسفتهم الاعتزالية أثر تأثيرا كبيراً في اللاحقين من اللغويين، وحددت تصورهم للعلاقة بين اللفظ والمعنى، وجعلتهم يفصلون بينهما، ويتمثلون العلاقة بينهما كالعلاقة بين الجارية ومعرضها والوعاء ومحتواه.

إلا أن الجاحظ وإن أقر بالانفصال بين اللفظ والمعنى باعتبار أسبقية المسمى على الاسم، وباعتبار أن المعاني "مبسوطة إلى غير غاية وممتدة إلى غير نهاية"، يرى في المقابل أن أسماء تلك المعاني "مقصورة معدودة ومحصلة محدودة"(الجاحظ، 2003، ص76)، ويغدو اللفظ شرطا لوجود المعنى. وقد أسس أبو

عثمان (ت471هـ) ذلك الاتصال على قواعد أربعة: التلازم، التبيين، والإيجاز، والتناسب(أحمد الوردني، 2004، ص778-782).

يعتقد السيوطي(ت911هـ) في هذا الصدد أن الألفاظ التي تشير إلى أصوات طبيعية إن هي إلا صدى لهذه الأصوات، هذا هو السبب إذن في استخدام "وشوشة" للدلالة على حركة الفم وهمس بعضهم لبعض، و"غرغرة" للدلالة على صوت لترديد الماء في الحلق... وفي استخدام "الكركرة" بالكاف للدلالة على الضحك، و"القرقرة" بالقاف للدلالة على حكاية الضحك إذا استغرب الرجل فيه، و"الرفرفة" بالراء للدلالة على صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح، وعشرات غيرها من الألفاظ أتى بها السيوطي بالمزهر لبيان "بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها"(السيوطي، دت، ص53).

ويمكن اعتبار نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) التي عرضها في كتابيه الشهرين "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وبصورة خاصة في الأول منهما يمكن تتويجا لمناقشات واسعة متشعبة حول الإشكالية التي يطرحها الزوج: اللفظ/المعنى، مناقشات دامت أزيد من قرنين ونصف، وهكذا فطوال الفترة من القرن الثالث إلى الخامس الهجري كانت إشكالية اللفظ والمعنى على رأس القضايا البيانية التي استأثرت باهتمام المتكلمين والبلاغيين فضلا عن النحاة واللغويين وعلماء أصول الفقه، وإذا كان تفكير النحاة واللغويين في هذه الإشكالية قد تركز حول "الإعراب" في ارتباطها بـ"منطق" اللغة العربية، وإذا كان اهتمام الأصوليين من الفقهاء والمتكلمين قد تركز داخل الإشكالية نفسها، على مسألة الدلالة من جهة ومسألة التأويل من جهة ثانية، فإن المتكلمين البلاغيين، والبلاغيين المتكلمين، سيعيشون ذات الإشكالية بتركيز اهتمامهم على جانب آجر، جانب المفاضلة بين اللفظ والمعنى في العملية البيانية البلاغية(الجاحظ، 1968، ص366).

لقد انتبه الجرجاني بفكره الناقد إلى حقيقة هامة، وهي أن وضع اللغة أصلا كانت الغاية منه أن يتم التفاهم بين الناس، والكلمات التي هي سمات للمسميات لا فائدة منها بحد ذاتها، وليس الغاية أن تعرف معانيها بنفسها، فلا يقال (جبل) أو (كتاب) ليعرف عن هذا الشيء بذاته، إذ لا تتم المواضعة إلا على شيء معروف أصلا، إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن

لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد(الجرجاني، 1992، ص454)، فالكلمة المفردة إذا لم يتم ربطها بغيرها من الكلمات صراحة أو تقديراً فلا تزيد عن كونها صوتا نصوت به، إذ لا فائدة خبرية ولا بلاغية ولا سمة نحوية...، وإنما تظهر فيها الفائدة الإخبارية والصفات النحوية والإعرابية عند دخولها في الجملة وتأليف الكلام(أحمد شامية، 1995، ص127).

فدلالة الكلمات على ما لها من أهمية لابد أن تكون موافقة لدراسة الدلالة على مستوى التعبير، أي أن أساس الدراسة الدلالية هو الطريقة التي تترتب على وفقها معاني الكلمات لتكوّن معنى الجملة(حاكم الزيادي، 2011، ص39)، التي يعدها أكثر اللغويين من أهم وحدات المعنى، بل يعدها بعضهم أهم من الكلمة نفسها.

لقد ميز النحاة الأوائل بين مستويين للدراسة النحوية، تمثل المستوى الأول في رصد الصواب والخطأ في الأداء اعتماداً على كلام العرب الفصيح المنقول نقلا صحيحا والبالغ حد الكثرة، ثم القياس عليه، وتجاوز المستوى الثاني الأول إلى ناحية الجمال والإبداع، من خلال العلاقات المتنوعة بين الكلمات والجمل، ومما لاشك فيه أن الجرجاني جمع بين هذين المستويين عندما أدرك بغيته في "التوفيق بين الشكل المادي للصياغة، والجانب العقلي للمعنى، عن طريق الاستعانة بالنحو التقليدي مع تحويله إلى إمكانات إبداعية، بالنظر في الصورة النحوية الظاهرة، ومسبباتها الوظيفية"(مُحَمَّد عبد المطلب، 1995، ص62). بل تجاوز ذلك إلى ربط الإمكانات النحوية بحركة اللغة وتطورها من صورة المواضعة الاتفاقية إلى صورة الخرق الذي يصيب دلالة الكلمات أثناء الاستعمال الاستعاري خصوصا، أو المجازي عموما(فؤاد علي، 1983، ص131)، فتجميع عناصر الكلمات المفردة لابد أن يتصف بالتأليف من جانب الصوت، والتركيب، والدلالة، وبهذا يتحقق النظم عند عبد القاهر الجرجاني بمعناه التام، والذي لا يأتي من خارج التركيب، بل من داخله.

2. التركيب والدلالة قبل نظرية النظم:

يعد الجاحظ (ت255هـ) فيما يبدو أول من أرسأسس النقاش في موضوع اللفظ والمعنى أو على الأقل هو الذي أعطاه أبعاده الخاصة، وذلك حينما أعلى من شأن اللفظ على حساب المعنى في نص له

مشهور يقول فيه: "المعاني مطروحة على الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك"(مُحَمَّد الجابري، 2009، ص77-78). وعلى الرغم من أنه أبرز في نصوص أخرى له أهمية "المعنى" في العملية البيانية... يدل على أنه لا يقصد اللفظ المفرد بل ما ينتظم بالألفاظ من العبارات، شعرًا ونثرًا، الشيء الذي يجعل منه الملهم لنظرية النظم التي سيشيدها الجرجاني. والجدير بالإشارة هنا أن هؤلاء الذين كانوا يعطون الأولوية للفظ في العملية البيانية كانوا يدركون أن ذلك من خصائص اللغة العربية وحدها، وأن الشأن في اللغات الأخرى غير هذا الاتجاه، وذلك ما أكده الجاحظ بنفسه(الجاحظ، 1968، ص85). وإذا كان هؤلاء البلاغيون قد "أخذوا حريتهم" في الإعلان من شأن اللفظ على حساب المعنى في العملية البيانية ناظرين إلى ذلك على أنه من "خصوصية" اللغة العربية، متخذين من "كلام العرب" إطارًا مرجعيا عاما لهم، فإن المتكلمين الذين خاضوا في مسألة الإعجاز القرآني لم يكونوا يمتكلون مثل تلك "الحرية"، إذ كان عليهم أن يراعوا جانب المعنى في النص القرآني مراعاتهم لجانب اللفظ، ولذلك نجدهم يرجعون بالعملية البيانية البلاغية إلى اللفظ والمعنى معا، إلى وجود التوافق والتكامل بينهما(مُحَمَّد الجابري، 2009، ص79).

أسهب الرماني (ت384هـ) القول في البلاغة ومراتبها وشروطها مقررًا –كأبي هاشم– أنها ليست في اللفظ وحده ولا في المعنى بمفرده، بل هي في الجمع بينهما على طريقة مخصوصة حددها بقوله: "إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ" (الرماني، دت، ص69)، ويعكس أبو حيان التوحيدي (ت414هـ) الذي كان مرآة عصره في المجال الثقافي هذا الاتجاه، فيقول: "ومن استشار الرأي الصحيح في هذه الصناعة الشريفة علم أنه إلى سلاسه الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ، وأنه متى فاته اللفظ الحر لم يظفر بالمعنى الحر لأنه متى نظم معنى حرًا ولفظا عبدًا أو معنى عبدًا ولفظا حرًا فقد جمع بين متنافرين بالجوهر ومتناقضين بالعنصر"، وهذا "لأن المعاني ليست في جهة والألفاظ في جهة، بل هي متمازجة متناسبة والصحة عليهما وقف"، غير أن النقلة الأساسية بين هؤلاء الذين يلحون على التوافق والانسجام بين اللفظ والمعنى كأساس البلاغة وبين نظرية النظم كما شرحها الجرجاني إنما نلمسها بوضوح في ما قرره القاضي عبد الجبار (ت415هـ) في موضوع الإعجاز القرآني. والحق أن تحليلات القاضي عبد الجبار في

هذا المجال تخطو بنا خطوات هائلة وحاسمة نحو نظرية النظم الجرجانية وذلك إلى درجة يصعب معها نسبة شيء آخر للجرجاني غير شرح الفكرة وتحليلها وإغنائها بالأمثلة. يقول القاضي عبد الجبار: "اعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في إفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولابد من الضم من أن يكون لكل كلمة صفة وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول بالضم، وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه، وقد تكون بالموقع، وليس لهذه الأقسام رابع، لأنه إما أن نعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها، ولابد من هذا الاعتبار في كل كلمة"(مُحَمَّد الجابري، 2009، ص80-81). إنه كما تجد نظرية "النظم" أصولها فيما ذكرناه تجد جذورها عند النحاة بدءًا من سيبويه إلى السيرافي... وأكثر من هذا استعار عبد القاهر الجرجاني من النحاة مفهوم "معاني النحو" الذي فسّر به "النظم"، بل إن مفهوم "النظم" ومقوماته الثلاثة (الكلمة، الحركات، الموقع) التي تحدث عنها عبد الجبار قبل، هو نفسه ما كان يعنيه النحاة بـ"معاني النحو"(مُحَمَّد الجابري، 2009، ص82).

ومهما يكن من أمر فإن إعجاز القرآن هو المثير لولادة نظرية النظم ونشأتها، وعلى الرغم من أن فكرة النظم لم تكن بكرًا عند الجرجاني فإن الفضل يعود إليه في صبها في إطار نظرية بين أسسها، وحدد معالمها، وأرسى دعائمها القوية، وأثراها بالدراسة العلمية في نسختها التطبيقية والتحليلية للنصول إلى أن ارتقت على يديه إلى مستوى النظرية الكاملة(حسين دزهيي، 2008، ص16)، مضمونها الكامن فيها كمشروع يتجاوز إشكالية اللفظ والمعنى في مستواها العمودي إلى مستوى أرقى من ذات الإشكالية، مستوى العلاقة بين نظام الخطاب ونظام العقل(مُحَمَّد الجابري، 2009، ص89).

3. الجديد في التركيب والدلالة في نظرية النظم:

لقد تجاوز النحو عند عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، ومن تبعه دائرة الخطأ والصواب ليدخل دائرة الأنساق التركيبية، ويصبح بؤرة المركز، والمصرف في صناعة نسيج العربية، وفي هذا يقدم دلائل الإعجاز كمنتج إبداعي ليكون منطلقه فيه مستوى النحو، أي رصد جدلية العلاقة داخل منظومة السياق، وعلاقات الطرد، والعكس في الكلم السطحي، والكيف العميق، وتسجيل قيم الأداء الجمالي العميق. يقول السيرافي في هذا الإطار: "إن معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ، وسكناته، وبين وضع الحروف

في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير، وتوخي الصواب في ذلك، وتجنب الخطأ من ذلك"(مندور مصطفى، 1974، ص138).

لقد وجه النحاة العرب عنايتهم إلى الكلام أكثر مما وجهوها إلى المتكلم، ومعنى ذلك أن النحو العربي خدم السامع أكثر من خدمة المتكلم، ولعل ذلك يرجع إلى أن النحاة وجدوا المسموع حاضراً فلم يكلفوا أنفسهم عناء البحث في دور المتكلم في الصياغة، ولما جاء عبد القاهر الجرجاني وكان أشعري المذهب، والأشاعرة يقولون بقدم القرآن ويفرقون بين النص المكتوب وبين الكلام من حيث هو صفة من صفات الله تعالى، "ولبيان جدوى هذا التفريق قالوا إن الكلام الذي هو صفة قديمة من صفات الله هو كلام نفسي، ويظهر أن المعنى عند الأشاعرة يتعلق بالمدلول دون الدال[1]، بخلاف المعنى عند المعتزلة الذي انتقل من المدلول وتحقق في الدال[2].

وعندما رأى عبد القاهر الجرجاني "لغو المعتزلة في خلق القرآن رجع –وهو الأشعري المذهب– إلى فكرة الكلام النفسي التي وردت عند الأشاعرة وفسروا بها صفة الكلام المنسوبة إلى الذات العلية... ثم قادته فكرة الكلام النفسي ذاتها إلى فكرة النظم وهو نظم المعاني في النفس"(تمام حسان، 2000، ص276).

وهكذا استوحى عبد القاهر الجرجاني من الكلام النفسي فكرته عن إنتاج الكلام راجعا بالنحو لأول مرة إلى العناية بما يدور في نفس المتكلم، آملا أن يكون في ذلك ما يقرب إلى الأفهام فكرة "الكلام النفسي" التي قال بها الأشاعرة، وهكذا جاءت فكرة النظم(تمام حسان، 2006، ص334).

يمر إنتاج الكلام في نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني بأربع مراحل، لكل مرحلة منها طرقها ووظيفتها، يبدأ فيها المتكلم بالنظم، فالبناء، فالترتيب، وينتهي بالتعليق، وذلك كما يأتي:

أولا: النظم:

والمقصود به نظم المعاني النحْوية في النفس، وتقع في طوائف، منها:

[1] (المعنى) الذي يمثله النص بشكله النهائي المصوغ، فقد بدءوا نشاطهم الدلالي بالنص.

[2] لتعاملهم مع اللغة المسموعة، فاهتموا في نشاطهم الدلالي بالمفدرة، بوصفها حاملة للدلالة الإشارية.

- معاني أقسام الكلمة كالحدث والاسمية والزمن والكنية والاستعْلاء وابتداء الغاية والعطف والاستدراك...
- معاني الصيغ كالطلب والصيرورة والاتخاذ والمطاوعة...
- معاني أبواب النحو كالإسناد والتعدية والظرفية والغائية والملابسة والنسبة...
- معاني أساليب الجمل كالخبر والتأكيد والشرط والإنشاء والطلب والتعجب..

والمقصود بالنظم أن يعمد المتكلم إلى اختيار ما يناسب غرضه من هذه المعاني، إذ يوردها على خاطره قبل أن يبني لها الكلمات (فكرة البناء) أو يرتب هذه الكلمات (فكرة الترتيب)، أو ينشئ بينهما العلاقات (فكرة التعليق)، فالنظم إذا هو إيراد المعاني المتعلقة بغرض المتكلم على خاطره استعداداً للدخول فيما يلي ذلك من مراحل، وواضح أن هذه المرحلة نفسية خالصة لا توصف بمفردات الكلمات ولا برصفها في سياق مستمر، ولا تقبل الدخول في أداء نطقي، إذ لا يمكن أن يتم الكلام بقولنا: (حدث + زمن + ك ت ب) بدل قولنا: (كتب)، لأن سرد المعاني النحوية السابقة من قبيل النظر و(كتب) من قبيل البناء(تمام حسان، 2006، ص335).

ثانيا: البناء:

بعد تحديد المتكلم للمعاني النحوية المراد التعبير عنها وينظمها في نفسه يبدأ في تأليف طوائف المعاني في مجموعات، تنتمي كل مجموعة إلى كلمة واحدة كالجمع بين معنيين (حدث + زمن) الدالين على الفعل، فيضم إليهما ما يصحبهما في نطاق النظم من أصل اشتقاق ليصوغ من الجميع فعلا مشتقا من الأصل الاشتقاقي المذكور، ويكرر ذلك مع بقية كلمات الجملة دون ترتيب، ثم يبدأ بناء هذه الكلمات(تمام حسان، 2006، ص335).

ثالثا: الترتيب:

كأن يراعي تقديم رتبة الفعل على الفاعل ورتبة الحرف قبل مدخوله، فلا يقال مثلا: (على ركب حصانه الفارس)، وهي مجموعة كلمات تم بناؤها ولكنها غير مرتبة، ويلزمها لتتحول إلى جملة أن يصيبها الترتيب فتصبح (ركب الفارس على حصانه). غير أن مرحلة الترتيب لا تشمل التعليق الذي نلاحظه في

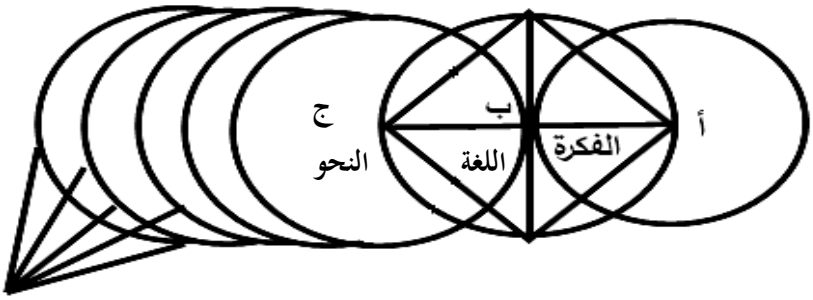
الجملة المذكورة والذي يتمثل في وجود ضمير يعود على الفارس، فمرحلة الترتيب لا ينظر فيها إلى الروابط(تمام حسان، 2006، ص336).

رابعا: التعليق:

بعد أن يتم بناء الكلمات كل على حدة دون النظر إلى ترتيبها، ثم بعد أن ترتب على صورتها التي بنيت عليها دون الربط بينها في نطاق الجملة تأتي مرحلة التعليق، وتتمثل في أمور مثل المطابقة وحروف الربط التي تؤدي إلى توثيق الروابط بين عناصر الجملة بشكل يتحدى الفصل والاعتراض والاستتار والحذف... مما يجعل المعنى الكلي للكلام واضحا ولاسيما إذا أسهمت القرائن السياقية والخارجية على هذا الوضوح(تمام حسان، 2006، ص336).

وفي الحقيقة إن عبد القاهر الجرجاني رجل نحو، ولغة، وبلاغة، واللغة في منظوره الكيفي مجموعة من الأصوات التي هي مادتها، وقيمة النحو في هذا العالم هي مفتاح فك قيود مادة هذه اللغة، يخرجها من خزينتها ليجعلها تفصح عن مدلولاتها، لأن النحو هو منطق اللغة المختص بتصريف برامجها التوازنية. إن منظومة الفكر واللغة عند عبد القاهر تتعلقان بعضهما بالبعض الآخر، وتجري في صورة البيان التالي:

الشكل رقم (01): العلاقات القائمة بين المعاني والفكر عند عبد القاهر الجرجاني.



مجموعة العلاقات القائمة بين المعاني

المصدر: (مندور مصطفى، 1974، ص96).

فالنقطة (أ) تتعلق بالنقطة ب والنقطة (ب) تتعلق بالنقطة (ج) والنقطة (ج) = حاصل مجموع العلاقات القائمة بين المعاني.

النقطة ج هي التي تتعلق بالنقطة (أ).

وبهذا تصبح النقطة ج هي مركز قيادة في ترتيب محتويات النقطتين (أ، ب)(مندور مصطفى، 1974، ص96).

خلاصة الوضع أنه لا تتفاضل الألفاظ والمعاني باعتبار صفتي التغير للأولى والثبوت والتجلي للثانية، ذلك لأن اللغة والفكر توأمان، لكن الموقف يحل بثبات لهما معا، وهما يدخلان السياق التركيبي، ويساهمان بإنتاج الدلالة الأفقية (دلالة التركيب) والدلالة الرأسية (دلالة التوليد)، وهي التي يسميها الجرجاني (معنى المعنى)، فاللفظ نفسه يفيدك معنى، وهذا المعنى نفسه يؤدي بك إلى معنى آخر، وذلك كما في قولنا (كثير الرماد)، فاللفظ نفسه أي هذه الجملة تفيد معنى ظاهرًا من اللفظ مباشرة وهو كثرة بقايا النار، ثم ينتقل الذهن تلقائيا بعد ذلك إلى المعنى الآخر وهو أنه كريم لذلك فهو كثير الطهي للضيوف(أحمد شامية، 1995، ص140).

لقد وجد عبد القاهر الإمكانات النحوية قائمة في تركيب الجملة وبنيتها الداخلية، فقاده ذلك إلى فكرة النظم... وهي فكرة قوية الصلة بالإمكانات النحوية، من حيث كانت هذه الإمكانات ذات فعالية خطيرة في أنساق اللغة وأساليبها... كما أنها المدخل الحقيقي لإدراك الإعجاز القرآني، وهذه الإمكانات ليست وقفا على تغيير أواخر الكلم بالإعراب(مُحَمَّد عبد المطلب، 1994، ص43).

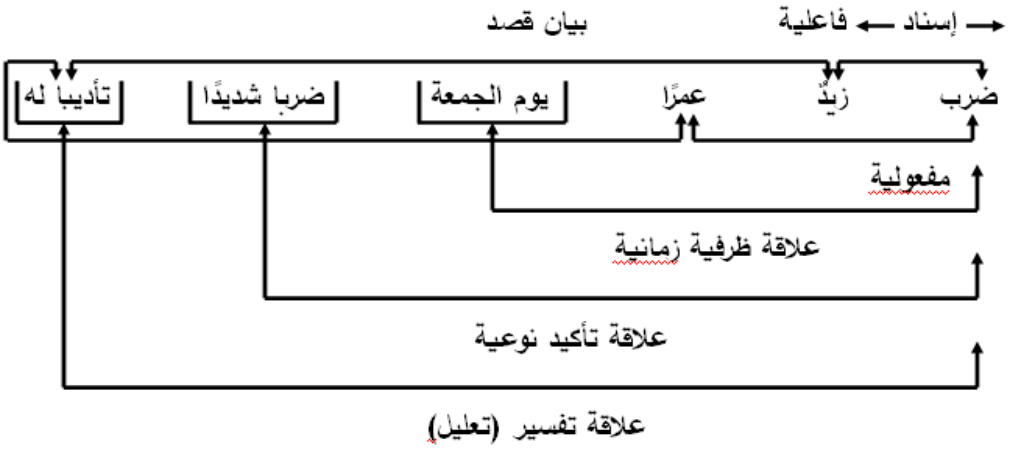
فالعلاقة التي تحصل بالنظم بين عناصر الكلام «ليست وليدة معناها اللغوي، "إذ ليست معاني النحو معاني الألفاظ"، وإنما هي نتيجة ما نسميه اليوم بالوظائف النحوية، أو هي حسب عبارة الجرجاني "توخي معاني النحو في معاني الكلم"، و"لا ترى شيئا من ذلك يعدو أن يكون حكما من أحكام النحو، ومعنى من معانيه"، ويمكن أن نقول إن النظم هو "الصورة التي يخرج فيها المعنى"، وهذه الصورة وليدة ثلاثة عناصر: اللفظ والمعنى والنحو، ولكن العنصر المتميز فيها ويعطي للصورة ملامحها الحقيقية هو العنصر النحوي، فمجال العلاقات النحوية هو المجال الوحيد الذي يمكن أن يتصرف فيه المتكلم، فلا قدرة لهذا

التصرف في الألفاظ ولا في معانيها»(المهيري عبد القادر، 1974، ص101، 113-114)؛ (مُحَمَّد عبد المطلب، 1995، ص65-66).

إن عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) قد صاغ نظرية للدلالة في التراث العربي تعرف بنظرية النظم، وضع فيها قوانين كلية للدلالة اللغوية على مستوى التركيب، وأدخل علم "معاني النحو" أساسا صلبا لهذه النظرية، والفارق بين عبد القاهر وغيره من اللغويين والبلاغيين أنه تنبه لدلالات العلاقات النحوية وتنبه لتأثيرها على الدلالة الوضعية للعلامة اللغوية في سياق بعينه، ولذلك نظر عبد القاهر لدلالة التركيب لا بوصفه حاصل جميع العلامات اللغوية المتضمنة فيه، بل بوصفه حاصل تفاعل دلالات العلامات ودلالات التركيب معا، "واعلم أن مثل واضع الكلام من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذا قلت: "ضرب زيد عمرًا يوم الجمعة ضربا شديدًا تأديبا له"، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم على مفهوم هو معنى واحد لا عدة معان كما يتوهم الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها، وإنما جئت بها لتنفيده وجوه التعلق التي بين الفعل الذي هو "ضرب" وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق، "وإذا كان الأمر كذلك فينبغي أن ننظر في المفعولية من "عمرو" وكون "يوم الجمعة" زمنا للضرب وكون "الضرب" ضربا شديدًا وكون "التأديب" علة للضرب، أيتصور فيها أن تفرد عن المعنى الأول الذي هو أصل الفائدة وهو إسناد "ضرب" إلى "زيد" وإثبات "الضرب" له حتى يعقل كون "عمرو" مفعولا وكون "يوم الجمعة" مفعولا فيه وكون "ضربا شديدًا" مصدرًا، وكون "التأديب" مفعولا له، من غير أن يخطر ببالك كون "زيد" فاعلا للضرب؟(الجرجاني، 1992، ص412-413).

إن هذه العلاقات التي يسهب عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في تحليلها في عبارة "ضرب زيد عمرًا يوم الجمعة ضربا شديدًا تأديبا له" هي العلاقات النحوية التي تجعل العلامات اللغوية ذات دلالة محدودة، وهي علاقات يمكن أن توضع على النحو التالي والذي يكشف أن معنى العلامة الأولى "ضرب" لا يتضح إلا بالعلامة الأخيرة في الجملة:

الشكل رقم (02): دور العلاقات النحوية في تحديد دلالة العلامات النحوية عند الجرجاني



المصدر: (أبو زيد نصر، 2001، ص90-91).

إن هذه العلاقات النحوية «التي تضفي على العلاقات دلالتها من جانب، وهي التي تميز الدلالة اللغوية عن غيرها من الدلالات من جانب آخر، ولذلك يرى عبد القاهر أن اختلاف العلاقات النحوية يؤدي إلى تغير المعنى رغم اتفاق العلامات المستخدمة في سياقين»(أبو زيد نصر، 2001، ص90-91). ويؤكد الجرجاني رأيه بأن نظم الكلام لا يتم بوضع بعضه إلى جانب بعض دون توخي المعاني النحوية، فيضرب لذلك مثلا ببيت أبي تمام:

لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ وَأَرْيُ الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ

ويقول الجرجاني (ت471هـ) لو أنك قررت في هذا البيت أن (لعاب الأفاعي) متبدأ أو لعابه خبر كما يوهمه الظاهر، أفسدت عليه كلامه وأبطلت الصورة التي أرادها فيه، وذلك أن الغرض أن يشبه مداده (بأرى الجنى) على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات أوصل إلى النفوس ما تحلو مذاقته عندها، وأدخل السرور واللذة عليها وهذا المعنى إنما يكون إذا كان (لعابه) مبتدأ أو (لعاب الأفاعي) خبر(الجرجاني، 1992، ص284).

لقد تدخل عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في وقت مازالت المعركة بين اللفظ والمعنى قائمة، فجاء حاملا أفكارًا أخرى فعني بشرح دلالات الألفاظ باختلاف مواقعها في الجمل، واهتم بالتراكيب لأنها لا تفيد إلا إذا انتقلت مع جاراتها فيما تهدف إليها هذه الكلمات في الجمل وما تفيده الجمل في ذات النص، والمزية في الكلام تعود إلى نظمه وسبيل المعاني النحوية سبيل الأصباغ التي تعمل فيها الصور والنقوش فترى ذلك قائما على التخير والتدبر في المواقع والمقادير وكيفية المزج والترتيب، ليأتي النقش عجيبا والصورة رائعة(بلعيد صالح، 2001، ص142).

4. خاتمة:

يمكن القول إن الرأي الغالب في الدراسات اللغوية العربية القديمة، فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين الألفاظ والأشياء، تناسب الألفاظ مع الأشياء التي تشير إليها فلم يكن لدى قطاع الدراسات اللغوية في حقل الثقافة العربية القديمة، أي مشكل في إدراك أن العلاقة بين الرموز اللغوية ومدلولاتها في العالم الخارجي ليست علاقة طبيعية، وكانت المشكلة في حقيقة الأمر هي في العمل بموجب هذا الإدراك، وهو الأمر الذي ركز عليه اللغويون المعاصرون، فقد اهتم المحدثون بالنظم أكثر من اهتمامهم بالنظام وذلك أنهم نظروا في توخي معاني الكلم في معاني النحو، ولم ينظروا في معاني النحو ذاتها، ولا حتى في "توخي معاني النحو في معاني الكلم"، فشدة اهتمامهم بالناحية "المعجمية" من الانجاز جعلتهم يحددون "الدلالة النحوية" بمقتضى "الدلالة المعجمية" الحاضرة أو المتضمنة في البنية، أما النحاة العرب فقد ركزوا جهدهم في تحديد دلالة النظم نفسه، وهي دلالة الإنجاز الفعلي للبنية، اعتمادًا على كون الدلالة الإعرابية هي الأساس في اختيار العناصر المعجمة للبنية.

لذا يعد عبد القاهر الجرجاني من السباقين تأكيداً لأهمية النحو وقيمته وفاعليته، فقد أبان تحليله للنصوص عن فهم أعمق وأبعد من أن تقيد الدلالة النحوية بالوظائف النحوية، فضلا عن إشارته إلى أن الدلالة النحوية الصحيحة هي التي يتوافق فيها اختيار المفردات مع جانبي الدلالة النحوية: الجانب الوظيفي والجانب التركيبي.

5. قائمة المراجع:

1. أبو الحسن علي بن عيسي الرماني (دت)، النكت في إعجاز القرآن في ثلاث رسائل في الإعجاز، القاهرة: سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة، دط.
2. أبو زيد نصر حامد(2001)، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المغرب: الدار البيضاء، المركز الثقافي، ط6.
3. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(1968)، كتاب الحيوان، ج3، تح: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، دط.
4. بلعيدصالح(2001)، نظرية النظم، الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط.
5. الجابري محمد عابد(2009)، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط9.
6. دلخوش جار الله حسين دزهيي(2008)، الثنائيات المتغايرة في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (دراسة دلالية)، الأردن: عمان، دار دجلة، ط1.
7. عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي(دت)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج1، تح: محمد أحمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، القاهرة: مكتبة دار التراث، ط3.
8. محمد عبد المطلب(1994)، البلاغة والأسلوبية، لبنان: بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط1.
9. محمد عبد المطلب(1995)، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ط1.
10. مندور مصطفى(1974)، اللغة بين العقل والمغامرة، مصر: الإسكندرية، منشأة المعارف، ط1.
11. المهيري عبد القادر(1974)، مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة، تونس: حوليات الجامعة التونسية، ع11.